بناء أثري لم ينشر بعد في جبل سمعان

كنيسة القديس ياربيلوس في كفر دارة عزه

بقلم

محمود حمدي شهيد

المساعد الفني الأول

تقع خرائب كفر دارة عزه على بعد ثلاثة كيلو مترات من قرية دارة عزه « منطقة جبل سمعان » فوق احدى القمم الثانوية للجبل . ويرتقي أصل هذه الخرائب إلى القرن الثالث ـ الرابع الميلادي . ولا يظهر ان هذا الموقع كان مشغولاً بشكل دائم منذ ان هجر في القرن السابع ، إذ ليس فيه أي أثر تاريخي يعود إلى القرون الوسطى . أما حالته الحاضرة فإن الموقع ليس إلا حقلاً لركام من الأطلال يبرز بينها بعض بقايا البناء القديم : أجزاء مبعثرة من الجدران ، وحطام أروقة ، وقوائم أبواب من حجر واحد مع نجفاتها « سواكف » .

ويرجع السبب في تهدم وانحلال هذه الخرائب إلى فقر نوع الأبنية المشيدة بأحجار عادية صغيرة ، منحوتة أطرافها بشكل بدائي ، ويتخلل هذه الخرائب أبنية بسيطة ، فهي ليست بالبيوت المتواضعة ، ولا هي بالدارات الغنية الواسعة ، والأبنية العامة الكبيرة ذات الجدران والأحجار الضخمة المنحوتة ، إلا انها مبنية على كل حال بشكل جيد ومتين ، مثل تلك التي يشاهد كثير منها في هذه المنطقة .

وباستثناء الكنيستين اللتين سنأتي على الكلام عنهما فيما بعد ، فلا يوجد في هذا الموقع بالحقيقة بناء يستحق دراسة خاصة .

وبساطة المساكن في كفر دارة عزه يمكن أن يفسرها تأخر الحالة الاقتصادية في القرية القديمة ، المأهولة بمزارعين متواضعين كانوا يعنون بغرس الأشجار أكثر من الفلاحة والزراعة بسبب ضيق الأراضي القابلة للزراعة ، الأمر الذي يفسره وفرة عـدد معاصر الزيت والنبيذ الملاحظة حتى الآن .

وأما سكان القرية فلم يكونوا إلا قرويين يعيشون في كنف بعض الأديرة . أو مزارعين أقوياء كانوا يقطنون في القرى الكبيرة ، كقرية دارة عزه مثلاً ، التي هي أقرب من غيرها من القرى الكبيرة ، وأكثرها أهمية بسبب وقوعها على الطريق الرئيسية القديمة التي كانت تربط « سيروس » بـ « أفاميا » في أسفل جبل koryphé المقدس (١) (جبل الشيخ بركات حالياً)(٢) هـذا الجبل

---

(١) كوربفه koryphé في الأصل كلمة يونانية بمعنى رأس أو قمة .

(٢) جبل الشيخ بركات حالياً كان يطلق عليه – على ما يبدو – اسم جبل ليلون في عهد ياقوت الحموي صاحب كتاب معجم البلدان المتوفي سنة ٦٢٦ هـ حيث قال :

ليلون ويقال ليلول جبل مطل على حلب ، بينها وبين انطاكية وفي رأسه ديدبان بيت لاها ، وفيه قرى ومزارع .. ذكرها عيسى بن سعدان الحلبي .. فقال :

ويا قرى الشام من ليلون ما نجلت على بلادكم هطـالة السحب
ما مر برقك مجتـازاً على بصري ألا وذكرني الدارين من حلب

انتهى معجم البلدان الجزء السابع ص ٣٤٧

وقال في بيت لاها :

بيت لاها حصن عال بين انطاكية وحلب على جبل ليلون ، كان فيه ديدبان ينظر أول النهار انطاكية وفي آخره إلى حلب .

انتهى معجم البلدان الجزء الثاني ص ٣٢٣

وفي الواقع فانه ليس في جبل ليلون (المعروف حتى اليوم بهذا الاسم) المتمم لجبل الشيخ بركات ، قمة عالية تطل على حلب وانطاكية إلا قمة جبل الشيخ بركات حالياً ، ومن المحتمل أن هذا الجزء من جبل ليلون كان قد غلبت عليه التسمية بجبل الشيخ بركات نسبة إلى الولي المسلم المعروف بهذا الاسم الذي دفن في قمته في مدخل السور الوثني للمعبد وما زال ضريحه يزار حتى الآن . وأكبر الظن أن هذا الولي كان مجاهداً وقد حوصر في قمة الجبل لمناعتها واستشهد فيها مع جملة المجاهدين الذين استشهدوا في الحروب الصليبية في القرى المحيطة بالجبل كقرية تلعادة ودارة عزه .

الذي كان في العهد الوثني متوجاً بمعبد « زوس مادبا شوس » الشهير والذي أصبح فيما بعد أحد مراكز انتشار الرهبنة السورية .

وقد عثرنا في الموقع المذكور على كنيستين كبيرتين هامتين ، تعود احداهما إلى القرن السادس الميلادي وتتألف من صحن واحد ، وربما كانت جزءاً من المجموعة الرهبانية الواقعة في الجنوب الشرقي من القرية ، والثانية تقع على الحافة الشرقية للقرية ، وفي أعلى موقع فيها ، وتاريخها المسجل على بعض الأحجار يعود إلى العام (٣٩٩ ـ ٤٠٠) الميلادي ، وسنقتصر في مقالنا هـذا على الكنيسة الأخيرة الشرقية التي اكتشفت من قبلنا في كانون الثاني ١٩٦٣ ، وقمنا باجراء الدراسة اللازمة لها .

وهذه الكنيسة في حالتها الحاضرة متهدمة ، وقد غطاها الركام بكاملها ، حيث تشاهد تحته المداميك السفلية بكل صعوبة . وهي الوحيدة الباقية من جوانب الكنيسة ومن الحنية ، وكذلك توجد أيضاً بعض قواعد الأعمدة (الصورة رقم ١) .

وفي بهو الكنيسة الأوسط يوجد محيط « البيما » ولا يمكن أن تتم الدراسة النهائية للبناء بدون رفع الأنقاض من داخل الكنيسة وخارجها ، وهو مشروع صعب وباهظ التكاليف بسبب وجود أكوام كبيرة من الحجارة يجب رفعها ، غير انه إذا ما تتبعنا تخطيط الجدران تحت الأنقاض ، وإذا ما عمدنا إلى اجراء بعض السبور في المواقع المزدحمة كثيراً بهذه الأنقاض ، فإنه يمكننا تنظيم مخطط مختصر للكنيسة . وبفحص دقيق لكتل الأحجار المتداعية ، يمكن تكوين فكرة قريبة من الحقيقة عن هيكل الكنيسة وتنظيمها الداخلي ، وها نحن نقدم فيما يلي نتائج هذا الاستقصاء والتحري الذي قمنا به (١) .

---

(١) أتوجه بالشكر والامتنان إلى السادة : الدكتور سليم عادل عبد الحق المدير العام للآثار والمتاحف سابقاً ، والأستاذ فيصل الصيرفي مدير آثار ومتاحف المنطقة الشمالية لتشجيعهما على نشر هذا المقال ولتوجيهي ، والمهندس السيد جورج تشالنكو عضو المعهد الفرنسي للآثار في بيروت والسيد جاك جاري من المعهد المذكور لتدريبي وتزويدي بالمعلومات ، وإلى المهندس المعماري الأستاذ نشأة شحادة ، والسادة أعضاء لجنة مجلة الحوليات لمساعدتهم القيمة .

بنيت هذه الكنيسة (بازيليك) وفق المخطط الشائع في المنطقة (المخطط رقم ١) . وتتألف من ثلاثة أقسام « Nef » يفصلها صفان من الأعمدة ، ومن حنية نصف دائرة ، تقوم على طرفيها غرفتان في امتداد جانبي الكنيسة . فالغرفة الشمالية ويدخل إليها من باب هي الـ « دياكونيكون » توضع فيها الألبسة المقدسة والآنية والأشياء الدينية الأخرى . والغرفة الجنوبية التي ينفذ اليها من باب ذي قنطرة على جانب الكنيسة هي الـ « مارتيريون » حيث توجد فيها التوابيت Reliquaires التي تحتوي على بقايا وآثار القديسين ، ولم تكن لتخلو منها اية كنيسة في ذلك العهد .

وقد قسنا الأبعاد الخارجية للكنيسة فبلغت (٢٢،٩٠ م) طولاً (من الغرب إلى الشرق) و (١٣،٨٠ م) عرضاً (من الشمال إلى الجنوب) . وتفصل القسم الأوسط عن القسمين الجانبين ست أقواس محمولة على خمسة أعمدة وعلى ركيزتين ملتصقتين في نهايتي الجدار الغربي وبالحنية ، (وقد تساقطت قديماً) والمسافة الوسطى بين الأعمدة هي (٢،٣٠ م) وارتفاع العمود مع قاعدته (٣،٣٠ م) وقطره الوسطي (٠،٥٥ م) وعرض البهو الأوسط اعتباراً من محاور الأعمدة هو (٦،٦٠ م) . أما عرض القسمين الجانبيين فهو (٢،٨٥ م) ويصبح عرض الكنيسة الداخلي بكامله (١٢،٣٠ م) وطولها الداخلي في المحور الطولاني من الجدار الغربي حتى قمة نصف قطر الحنية (٢١،٦٥ م) وعرض الحنية (٥،٠٥ م) وعمقها (٣،٦٥ م) وابعاد كل من الغرفتين الجانبيتين لها هي (٣،٠٠ م) و (٢،٩٠ م) .

أما الجدران فيختلف عرضها بين (٠،٩٠ م) في الشمال و (٠،٧٥ م) في الجنوب ، وبين (٠،٥٤ م) في الشرق و (٠،٦٨ م) في الغرب . وقد بنيت من أحجار مزدوجة (حبتين) القسم الخارجي فيها بني بحجارة مهيأة بشكل متجانس وذات حجوم كبيرة سمكها يتراوح بين (٠،٣٠ م) و (٠،٤٥ م) وهذه الحجارة عبارة عن بلاطات حقيقية جيدة النحت والتنظيم . أما القسم الداخلي من الجدران فقد بنيت بحجارة صغيرة غير منتظمة وموضوعة في مداميك دون اتقان .

وكانت هذه الحجارة مغطاة دون ريب بنوع من الزريقة ما عدا الحنية Abside التي بنيت بحجارة كبيرة ، جيدة النحت ولكنها عارية عن الكسوة كما هو الحال في الواجهات الخارجية للكنيسة .

ولقد تبين لنا من دراسة القطع الحجرية الموجودة في هذه الكنيسة اننا نستطيع ان نتصورها كما كانت في سابق عهدها ، وان نقوم باعادة البناء كما كان عليه ، وذلك بترميم القسم الأوسط ، الذي كان يرتفع بأعمدته المرتبة على صفين متوازيين ، حتى بدء العقود أو حتى بطنها(المنظور رقم٢).

ولما كان ارتفاع العمود مع قاعدته هو (٣٫٣٠ م) وارتفاع تاجه هو (٠٫٥٨ م) فإن مبدأ العقود هو بارتفاع (٣٫٨٨ م) ولما كان قطر العقد مساوياً إلى المسافة بين الأعمدة ، فنصف قطر العقد هو : ٢٫٣٠ / ٢ = ١٫١٥ م ، وإذا أضيفت إلى ذلك الزيادة المعتادة بارتفاع العقد والتي هي (٠٫٥٠ م) فيبلغ ارتفاع العقد ١٫١٥ + ٠٫٥٠ = ١٫٦٥ م ، والارتفاع الكامل حتى قمة بطن العقد يبلغ ٣٫٨٨ + ١٫٦٥ = ٥٫٥٣ م .

وكذلك الحال في تاج ركيزة الحنية الذي يوضع دوماً فوق تاج الرواق المؤدي اليها والملتصق بها وارتفاعه هو أيضاً (٠٫٥٨ م) فيكون مبدأ عقد الحنية إذاً على ارتفاع ٣٫٨٨+٠٫٥٨=٤٫٤٦ م).

ولما كان قطر الحنية هو (٥٫٠٥ م) ونصف قطرها ٥٫٠٥ / ٢ = ٢٫٥٣ م تقريباً ، وكانت الزيادة المعتادة بارتفاع العقد هي أيضاً (٠٫٥٠ م) فارتفاع قمة بطن عقد الحنية عن الأرض هو :

٤٫٤٦ م + ٠٫٥٠ + ٢٫٥٣ م = ٧٫٤٩ م . وهو رقم تقريبي لأن مقـــدار زيادة ارتفاع العقود ليس معلوماً لدينا بصورة دقيقة .

ويمكن بالمقارنة مع الأمثلة المعلومة متابعة الحساب التخطيطي التقريبي حتى الارتفاع الكامل للرواقين اللذين يفصلان القسم الأوسط عن القسمين الجانبيين ، غير ان اعادة بناء الرواقين بهذا الارتفاع يبقى فرضياً ولا يضيف جديداً إلى معلوماتنا عن فن العمارة في ذلك العصر .

ونتوقف عند القول بأن هيكل كنيستنا هذه ليس إلا نموذجاً عن الكنائس القروية المجاورة لجبل سمعان المبنية في منتصف القسم الثاني من القرن الرابع الميلادي .

وفي منتصف الصحن الأوسط تقوم البيما بشكلها المعروف ، وهي عبارة عن مصطبة مستطيلة مغلقة في الغرب على شكل نصف دائرة ، وتتقدمها في الشرق مواجهة الحنية درجة تقع بصورة دقيقة في محور الكنيسة (الصورة ٢ ، ٣) .

وأبعاد هذه المصطبة هي (٤٫٥٥ م) طولاً و (٤٫٢٠ م) عرضاً ، وعرض الدرجة (٠٫٧٠ م)

وتقع فتحة صهريج المياه وحلقته الحجرية باستقامة هذه الدرجة وتوازيها .

وتتكون المصطبة نفسها من مدماك خارجي ارتفاعه (٠،٦٥ م) مبني بقطعة واحدة من الحجارة على كل من جانبيها المستقيمين ، ومن سبعة أحجار أخرى أصغر منها في نصف دائرتها ، أما القسم الداخلي من المصطبة فهو مغطى ببلاطات حجرية لا يزال يرى قسم منها الآن ، وأما عناصر البيما الأخرى العلوية فهي مفقودة ، ويحتمل أن تكون مبعثرة تحت الأنقاض ، ويمكن رؤية بعض قطع من ألواح الحجارة (شانسيل Chancel) المزينة بإطارات بعضها أملس وبعضها الآخر مزخرف ، وهي ظاهرة الآن على السطح . ولا يمكننا في هذه المرحلة الراهنة من الدراسة الجزم بالجهة التي تعود اليها هـذه (الشانسيلات) ومعرفة ما إذا كانت للحنية أم للبيما (الصور رقم ٤ ،٥ ،١٢) .

أما سطح المدماك الذي يحيط بـ (البيما) فيحتوي على فرضات واسعة أعدت لتثبيت عناصر البيما العلوية العرش والمقاعد و (الشانسيل) الدرابزون ... الخ وان وضع هـذه البيما وهيئتها وتفاصيلها وعناصرها تشابه (البيما) العائدة لكنيسة (سنخار) المكتشفة من قبل المهندس السيد تشالنكو والتي هي واحدة من أقدم الأمثلة عن البيما في هذه المنطقة .

ينفتح بابان في الجدار الخارجي الجنوبي للكنيسة على فسحة سماوية مستطيلة ، وهما المنفذان الوحيدان للكنيسة ، فلا توجد أبواب أخرى سواء في الجهة الغربية أو في الجهة الشمالية لجدران الكنيسة ، وهذا الترتيب شائع في كل كنائس القرى في القرن الرابع الميلادي .

ولا يمكن الدخول إلى الكنيسة إلا من الجهة الجنوبية وبعد اجتياز الفسحة السماوية التي تتقدم هذه الكنائس . وفي كنيستنا هذه فإن المدخل المؤدي إلى الفسحة السماوية لا يقع في الجهة الجنوبية كما هي العادة بل في الجهة الشمالية حيث توجد القرية ، وعلى وجه التحديد يقع في الزاوية الشمالية الغربية بحذاء الجدار الغربي للكنيسة من الخارج ، وينفـذ منه إلى ممر يمتد على طول جبهتها الغربية وينتهي بباب ثان يؤدي إلى الفسحة السماوية ، وفي آخر هـذا الممر يوجد باب ثالث يطل في الغرب على بناء آخر يحتمل أن يكون مسكن راهب الكنيسة الذي يقع عادة غربي الكنيسة وفسحتها السماوية (المخطط رقم ١ ، ٢ ، المدخل الرئيسي للكنيسة والصورة رقم ٦) .

وتمتد الفسحة السماوية على طول الواجهة الجنوبية للكنيسة وأبعادها (٢٤،٤٠ م) طولاً و (١٠،٢٠ م) عرضاً . وفي قسمها الشرقي وقريباً من الرواق الذي يتقدم الجدار الجنوبي للكنيسة يوجد صهريج للمياه يستعمله الآن الرعاة والمزارعون المجاورون للكنيسة . وفي مواجهة هذا الصهريج يوجد مدفن ملتصق بالجدار الجنوبي للفسحة السماوية ، وهو على شكل تابوت (ساركوفاج) منحوت في الصخر .

وينفذ من هذا الجدار من باب على بناء متهدم ، غير أنه كان بلا شك واحداً من الأبنية الملحقة بالكنيسة . وفي الجدار الشرقي للفسحة السماوية يوجد باب أيضاً ينفذ منه إلى بناء آخر ملحق لاتزال مداميكه السفلية باقية للآن . وهـذا الملحق ضيق وطويل ويمتد نحو الشرق ويتجاوز امتداد الجدار الخلفي لمؤخر الكنيسة chevet (المخطط رقم ١ ، ٢) .

التفاصيل المعمارية

من خلال الأحجار المتساقطة من جدران الكنيسة ، وفي الركام والأتربة المتجمعة داخل الكنيسة وخارجها ، أمكن رؤية بعض القطع المزخرفة والمنحوتة التي تسمح لنا بتكوين فكرة عن العناصر الزخرفيه في هذه الكنيسة .

وقد لاحظنا أن هذه الزخارف تتبع نفس الأسلوب الشـائع في ذلك العصر في أماكن العبادة ، وهو أسلوب التقشف الذي يقضي بأن تترك الواجهات عـارية تقريباً ، بينما تتركز العناية بتجميل الداخل وباظهار عناصر هيكل البناء مثل قواعد الأعمدة والركائز والتيجـان والأقواس وغيرها ، وخاصة الأماكن المتعلقة بالطقوس الدينية (كالبيما) والحنية وأماكن حفظ بقايا عظام القديسين .

إن وجود الأفاريز فوق جدران الكنيسة يعود بتاريخ كنيستنا إلى النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . فالأفريز في الواقع غير موجود في كافة الكنائس الأولى المبنيـة في النصف الأول من القرن الرابع في (قرقبيزة ونوريه وفي معرمايا ، وفي باتوتا ، وفي سنخار .. الخ)

وقد ظهر أول ماظهر في جبل سمعان كنيسة (فافرتين) التي يعود تاريخها إلى سنة ٣٧٢ ميلادية ، وفي كنيسه (خراب شمس) المبنية خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، فقد ظهر الأفريز فوق الجدران المبنية فيا بعد ، وهي الجدران الشرقية والغربية والجنوبية ، ولم يظهر في الجدار الشمالي الذي هو أقدم قسم من البناء .

أما جوانب الأبواب وسواكفها فتتألف كل منها من حجرة كبيرة واحدة بخلاف مداميك الجدران التي تتألف من حجارة أصغر مما يدل على قدم البناء ، ولا توجد في هذه الجوانب والسواكف أية عناصر تزيينية معمارية ما عدا الباب الشمالي حيث نعود إلى البحث عنه فيا بعد ، والباب الشرقي للجبهة الجنوبية فقط ، وهو الباب الرئيسي للكنيسة ، ويحتوي على ساكف مكسور عليه رسم هندسي محفور في سطح الساكف الأملس وقرص كبير ذي أشعة على شكل مروحة.

أما تيجان أعمدة الأروقة فهي من الطراز (الايوني) وتشبه التيجان الكلاسكية المعروفة في القرن الرابع الميلادي بعد ادخال بعض التعديلات عليها ، وخاصة تيجان الكنيسة الجنوبية في (خراب شمس) . الا ان الطريقة المتبعة في نحت هذه التيجان هي بدائية وغير جيدة (الصورة رقم ٧) .

وأما قواعد الأعمدة والركائز فهي مبنية بشكل فني أدق (الصورة رقم ٨) وتعتبر من حيث بساطتها وتناسب زخارفها أفضل النماذج المنفذة في ذلك العصر كما هو الحال في قواعد أعمدة (باتوتا) و (سنخار) .

كما ان النقوش العليا لقوس الحنية فهي جيدة الصنع أيضاً وان لم تكن نادرة في الكنائس القروية المعروفة في القرن الرابع الميلادي مثل باتوتا ، سنخار ، كيار . أما في القرن الخامس فلم تعرف هذه النقوش إلا في الكنائس الهامة ، واقتصرت الكنائس الصغيرة على بقاء القوس أملساً وفي بعض الأحيان كانت الحجرة التي تتوسط القوس (ختم) تزين بقرص عليه رسم المسيح .

ويوجد كما أوردنا سابقاً نوعان من أقسام ألواح الحجارة (شانسيل) : البعض أملس والآخر منقوش (الصور رقم ٤ ، ٥ ، ١٢) وكلاهما يشبه (الشانسيلات) التي كانت درست من قبل المهندس السيد تشالنكو في كنيسة (سنخار) . وبالمقارنة مع هذه الكنيسة يمكننا أن نفترض



١ – الكنيسة : منظر عام من الجنوب



٢ ـ البيما



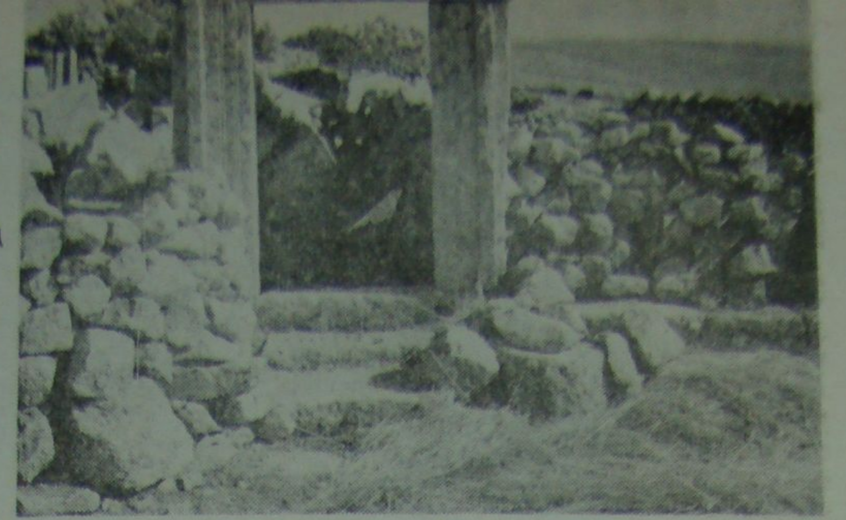
٣ ـ الكنيسة من الشرق



٤ ـ حاجز منحوت



٥ ـ حاجز مبسط



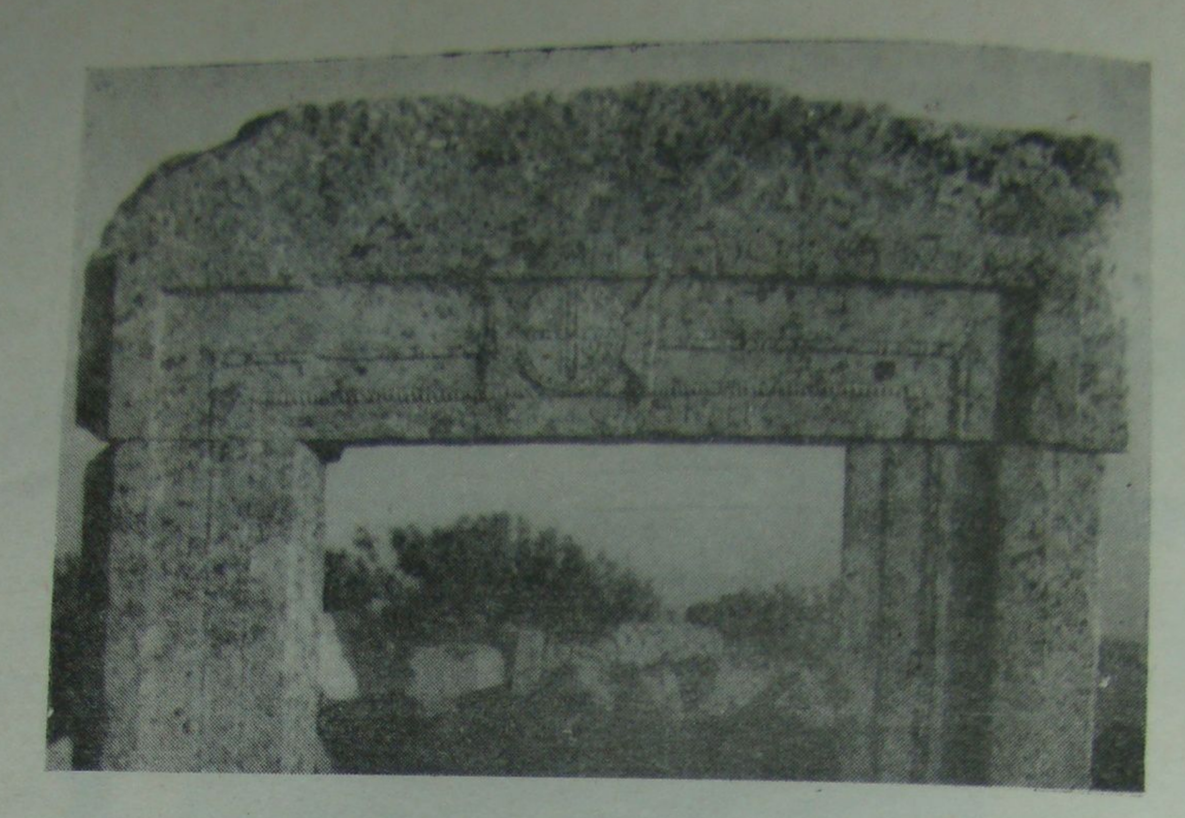
٦ ـ المدخل الرئيسي في الشمال



٧ ـ أحد تيجان الأعمدة



٨ ـ قاعدة عمود



٩ ـ المدخل الرئيسي في الشمال



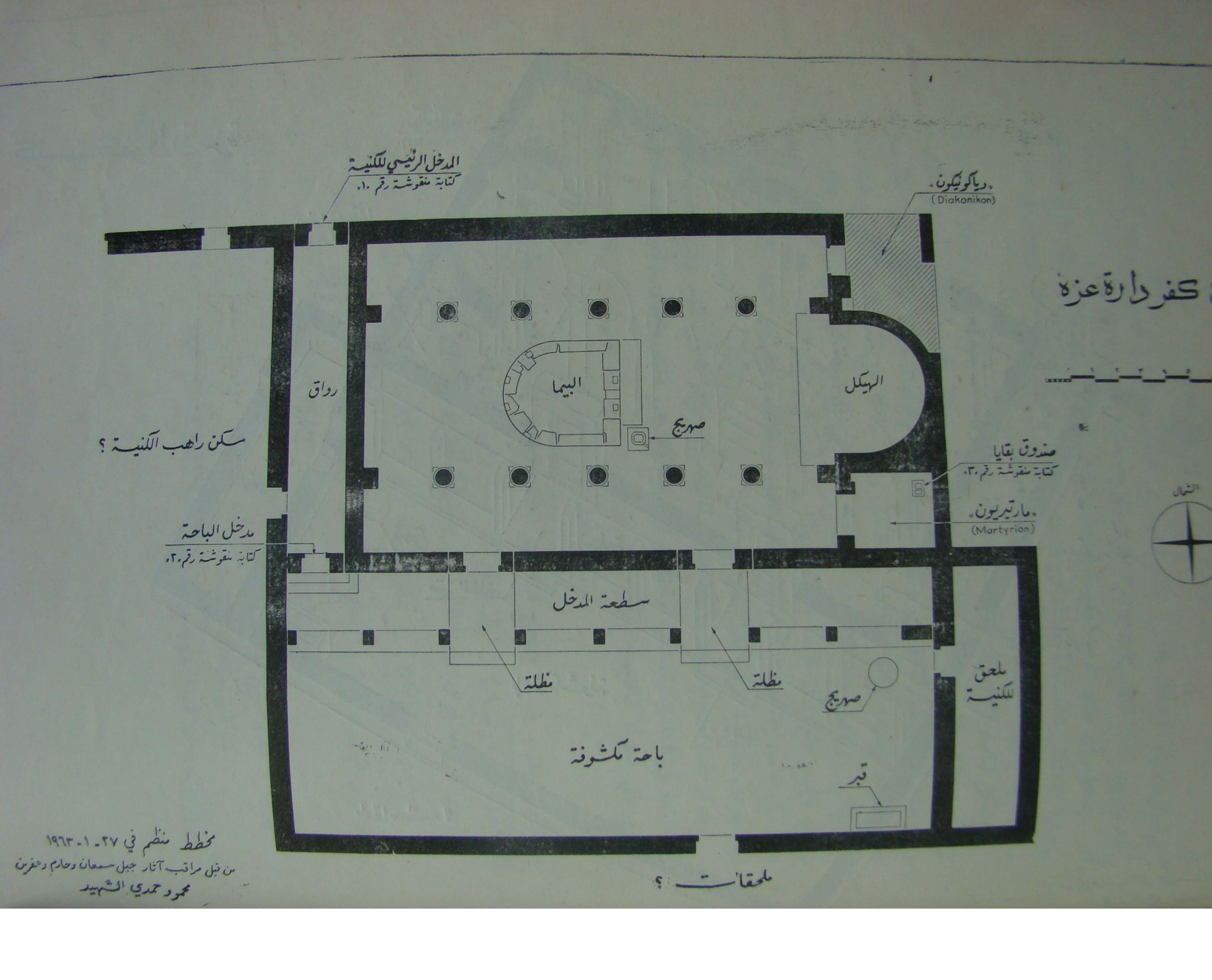
١٠ ـ تابوت لعظام القديسين



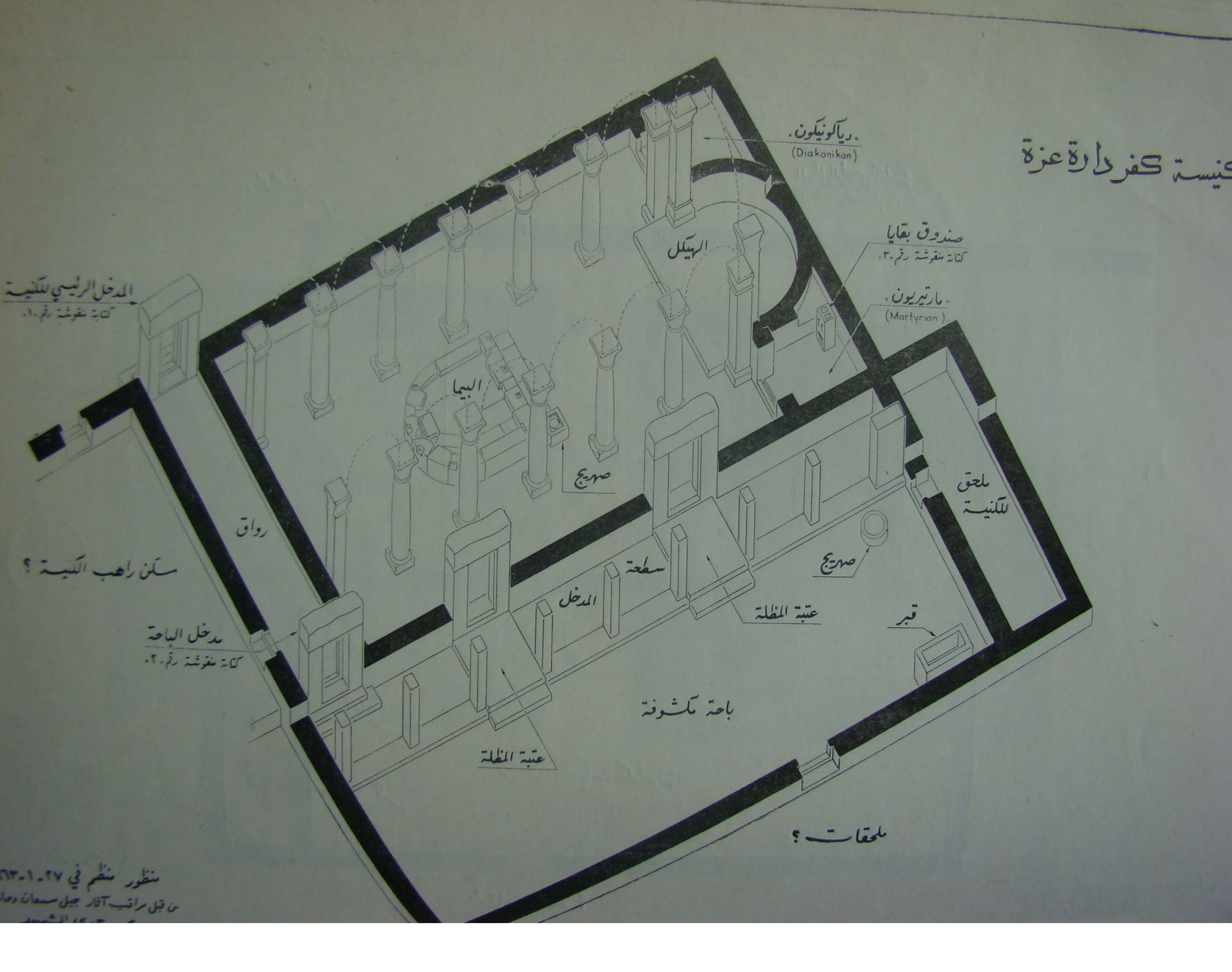
١١ - تابوت لعظام القديسين



١٢ - جزء من البيما



كفردارةعزة
المدخل الرئيسي للكنيسة
كتابة منقوشة رقم ١.
دياكونيكون
(Diakonikon)
رواق
البيما
الهيكل
صهريج
سكن راهب الكنيسة ؟
صندوق بقايا
كتابة منقوشة رقم ٣.
مارتيريون
(Martyrion)
الشمال
مدخل الباحة
كتابة منقوشة رقم ٢.
سطحة المدخل
مظلة
مظلة
صهريج
ملحق للكنيسة
باحة مكشوفة
قبر
ملحقات ؟
مخطط منظم في ٢٧-١-١٩٦٣
من قبل مراقب آثار جبل سمعان وحارم وعفرين
محمود حمدي الشهيد



كنيسة كفردارة عزة
دياكونيكون.
(Diakonikon)
صندوق بقايا
كتابة منقوشة رقم ٣.
مارتيريون.
(Martyrion)
الهيكل
البيما
صهريج
المدخل الرئيسي للكنيسة
كتابة منقوشة رقم ١.
رواق
سكن راهب الكنيسة ؟
مدخل الباحة
كتابة منقوشة رقم ٢.
سطحة
المدخل
عتبة المظلة
صهريج
ملحق للكنيسة
قبر
باحة مكشوفة
عتبة المظلة
ملحقات ؟
منظور منظم في ٢٧-١-٦٣
من قبل مراقب آثار جبل سمعان

غير جازمين بأن (الشانسيلات) الملساء تعود إلى درابزون البيا (الصور ٥ و ١٢) والصفائح المنقوشة من هذه (الشانسيلات) تعود إلى درابزون الحنية (الصورة رقم ٤) .

ونستطيع أن نقدر تاريخ الكنيسة إلى القرن الرابع الميلادي وذلك استناداً إلى طراز تصميمها وهيكلها الانشائي وتفاصيلها ، وقد أمكن التحقق من ذلك بواسطة الكتابات التي وجدت على حجارتها وهي تعطينا بعض المعلومات المتممة عن كنيستنا هذه .

يشكل الباب الشمالي كما رأينا المدخل الوحيد إلى الكنيسة من جهة القرية . (الصور رقم ٦ و ٩) وهو وحده الباب الذي ما زال قائماً بحالة جيدة ، وقد حافظ على ساكفه دون أن يمس بأذى ، وهو وحده أيضاً الباب الذي زين بنقوش معمارية ، فقوائم الباب وساكفه تظهر من الجهة الخارجية للمدخل وقد زينت بثلاثة اطارات مسطحة ومدرّجة كما هو الحـــال في تدرّج الساكف الكلاسيكي . ويفصل هذه الاطارات المدرجة صفان من الزخرفة التي تمثل حبلين من اللآلىء ، ويحيط بالجميع اطار أقل عرضاً وأكثر بروزاً . ونحت في وسط الساكف نقش مستدير يحيط به من كل جانب جناح مثلث الشكل محاط بحبل من اللآلىء . ويحتوي النقش المدور على صليب ذي أطراف متساوية مزين أيضاً بحبلين من اللآلىء .

وقد تم نحت هذه المجموعة الأنيقة المنسجمة بيد صانع ماهر ، ذي ذوق رفيع وحس مرهف بلغ الروعة في التناسق والتناسب والعناصر الزخرفية هنا هي ذات مستوى رفيع تفوق ما هي عليه في باقي أجزاء الكنيسة .

الكتابات المنقوشة

الكتابة رقم ـ ١ ـ : يتضمن الساكف المشار اليه في المدخل الشمالي سطرين من الكتابة اليونانية (الصورة رقم ٩) (انظر الموقع في المخطط رقم ١ و ٢) .

السطر الأول منقوش على الاطار الخارجي كما أسلفنا فوق الصليب وهو :

ΕΙC ΘΕΟC ΚΑΙ Ο ΧΡΗCΤΟC ΕΤΟΥC ΗΜΥ

والسطر الثاني منقوش في أسفل الساكف كما يلي :

ΚΙΑΚΑC ΤΕΧΝΙΤΗC

الترجمة : الله والمسيح سنة ٤٤٨

كياكاس مهندس البناء

ملاحظات : ان السنة ٤٤٨ من تاريخ انطاكية توافق السنة (٣٩٩ ـ ٤٠٠) ميلادية

الكتابة رقم – ٢ – : وجدت هذه الكتابة فوق جزء من ساكف يقع في الزاوية الشمالية الغربية قريباً من الباب المؤدي إلى الممر (هذه الحجرة التي كانت بدون شك تشكل جزءاً من ساكف هذا الباب) وهي كتابة يونانية غير كاملة . (انظر الموقع في المخطط رقم ١ ، ٢)

... ΑΓΙΟΥ ΙΑΡΒΗΛΟΥ ...

الترجمة : من القديس ياربيلوس

الكتابة رقم – ٣ – : في الزاوية الشمالية الشرقية من الـ (مارتيريون) تابوت ما زال قائماً بحالة جيدة Reliquaire (الصور رقم ١٠ و ١١ والموقع في المخطط رقم ١ ، ٢)

وهو عبارة عن كتلة واحدة عرضها (٠،٦٠ م) وعمقها (٠،٤٥ م) وارتفاعها (١،٠٥ م) وقد انكسر جزء من حافتها العلوية ، وفي القسم الأعلى من هذه الكتلة يوجد مكانان مستطيلان معدان لوضع آثار القديسين وتحتها تجويفـــان كانا مستعملان لحفظ الزيت الذي يفرغ في قمع محفور في غطاء الكتلة ، والذي يصبح مقدساً بتماسه مع آثار القديسين أثناء انسكابه من قناة ضيقة في قعر هذين التجويفين .

أما غطاء الجرن المقدس Reliquaire فلم نعثر عليه .

وفي أعلى التجويفين يوجد سطر من الكتابة اليونانية وقد محى الزمن حرفيها الأخيرين وهذه الكتابة كما يلي .

ΑΓΙΟϹ ΑΡΒΕΛ[ΟϹ]

الترجمة : القديس اربيلوس .

ويقصد به طبعاً نفس القديس الذي ورد اسمه في الكتابات رقم (٢) .

ومن المحتمل جداً ان يوجد تحت انقاض الـ (ماتيريون) توابيت أخرى Reliquaires .

النتـــائج

مما تقدم في هذه اللمحة العجلى يظهر بأن كنيسة كفر دارة عزه القروية رغم صغر أبعادها ومظهرها المتواضع وتهدمها الشديد لا تخلو من فائدة تضاف إلى معلوماتنا عن الفن المعماري لهذه المنطقة ، فنحن نعلم تاريخ بنائها وهو عام ٣٩٩ – ٤٠٠ ميلادي ، وبانيها وهو المعلم المعمار

(كيا كاس) ، والقديس الذي اهديت اليه وفيها آثاره وهو القديس (ياربيلوس) . وفضلا عن ذلك فإنها برغم بساطة بنائها تحتوي على كل العناصر المعروفة في الأبنية الدينية لذلك العصر .

فمن حيث التنظيم ، يشتمل مخططها على ثلاثة أبهاء وعلى حنية نصف دائرية تقوم على جنبيها غرفتان هما (الدياكونيكون) (تحضير الصلاة) و (المارتيريون) الذي يشتمل على بقايا من قبور القديسين ، وهاتان الغرفتان الجانبيتان قد أصبحتا منذ أواخر القرن الرابع تدخلان بانتظام في تصاميم البناء للكنائس السورية . ويشتمل المخطط أيضاً على (البيما) في منتصف البهو الأوسط وعلى الجرن المقدس في (المارتيريون) وعلى منفذ وحيد من القسمين الجانبيين بواسطه بابين يطلان على رواق تتقدمه ساحة سماوية ، وفي هـذه الساحة يوجد صهريج للمياه ، ومدفن ، والمداخل المؤدية إلى الأبنية الملحقة بالكنيسة ، وأخيراً يشتمل التنظيم أيضاً غربي الساحة على مسكن راهب الكنيسة .

أما من حيث الهيكل الانشائي وطريقة التنفيذ ، فالمسافة بين الأعمـدة ضيقة ، وارتفاعها قليل ، وارتفاع أرض الكنيسة عما يجاورها قليل بالنسبة لما هو معروف في سائر الكنائس والجدران مبنية من حجارة مزدوجة (حبتين) متباينة وبلا عناية ، وقوائم الأبواب وسواكفها تتألف من حجرة واحدة ملساء لاتتفق مع ارتفاع سوقات مداميك الواجهة الجنوبية للكنيسة .

وأما من حيث التفاصيل المعمارية ، فالجبهات ذات منظر متقشف ، حيث يقتصر التزين على عمل أفاريز لجدران الكنيسة ، وعلى نقش إطار باب واحـد (وهو الباب الشمالي الذي ليس هو بالواقع جزءاً من البناء) وعلى بعض الزخارف بشكل رسوم هندسية منقوشة على باب آخر ، غير أننا نجد أن هناك بعض العناية بالزخارف الداخلية في قواعد الأعمدة والركائز حيث توجد بعض الزخارف البسيطة والمعبرة ، وكذلك في القسم العلوي من قوس الحنية .

كما أن الحل الموفق البسيط يبدو في نحت التيجان (الأيونية) التي روعيت فيها المتطلبات الفنية الجديدة وما يلزم لها لتحمل الكتلة الثقيلة التي تقوم عليها ، كما يبدو الحل الموفق والبسيط في (الشانسيلات) ذات الصفائح الملساء والصفائح المنقوشة .

ونحن وإن كنا نعرف هذه العناصر المختلفة في الكنائس العديدة في جبل سمعان وحتى في المنطقة التابعة لانطاكية من (بيلوس) ، غير أنه حتى الآن لم تكن توجد هذه العناصر إلا معزولة أو غير كاملة ولا يمكن تعين تاريخها .

أما في الكنيسة هذه فتظهر العناصر كاملة ومؤرخة بدقة ، ومجتمعة كلها في وحدة معمارية ذات برنامج متكامل لبناء ديني في القرن الرابع الميلادي .

وهذه الحقيقة تصبح وحدها ذات أهمية أساسية لدراسة الفن المعماري السوري القديم ولها أيضاً نتائج بعيدة المدى لأنها تسمح لنا بتعين تاريخ عدد كبير من الكنائس المتأخرة والقديمة بدقة وكذلك الكنائس التي بنيت في القرن الرابع الميلادي ، وتابعت تطورها في العصر التالي على أسس ثابتة .

ويقيننا أنه هنا تكمن الفائدة الأساسية من كنيسة كفر دارة عزه التي لم تعرف بعد بشكل كاف ، والتي تستحق أن ترفع منها الأنقاض بشكل صحيح ، وأن يعمل لها مخطط طوبوغرافي مفصل.

محمود حمدي الشهيد

مصادر البحث

١ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ ، الجزءان الثاني والسابع .

2 — M. de Vogüé : Syrie centrale,, Architecture civile et religieuse, du 1e au VIIe s, 2 Vol. (Paris 1865 - 1877).

3 — H. C. Butler : Early Churches in Syria, ed. and compl by E. B. Smith. (Princeton 1929).

4 — L. Jalabert & R. Mouterde : Inscription greques et latires de la Syrie. P. P. 256 — 267 N. 465 — 475 (Paris 1939).

5 — J. Mattern : A travers les villes mortes de Haute - Syrie, 2e ed (Beyrouth 1944).

6 — J. Lassus : Sanctuaires chrétiens de Syrie (Paris 1947).

7 — C. Tchalenko : Villages antiques de la Syrie du Nord. Le Massif de Bélus à l'époque romaine 1e Vol (Paris 1953).